الجدل
في منطق القرآن

د. إبراهيم عبد الرحمن عتلم
مدرس الدعوة والثقافة الاسلامية
كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية
جامعة الأزهر

تمهيـــد :

١ ــ رسالة الاسلام •• خالدة •• لأن الدين عند الله الاسلام •• رضيه للبشرية دينا •• وأرسل به الرسل تترى •• من « نوح » عليه السلام الى •• « محمد صلى الله عليه وسلم » خاتم الرسل •• فكان تمام الرسالة •• ومعجزتها الخالدة « القرآن الكريم » منهجا للبشرية تسير على هـداه ••

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لـكم الاسـلام دينـا »(١) •

« ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهـو فى الآخرة من الخاسرين »(٢) •

٢ ــ وهـذه الرسالة لا تعيش وحـدها •• فلها أعـداء كثيرون •• يتربصون بها •• ولا يريدون لها أن تسود وتنتشر ••

٣ ــ وهؤلاء الأعـداء من كل لـون •• مشركون •• يهود •• نصارى •• و •• غيرهم •

٤ ــ وأخطر أعـدائها •• المعاندون •• والمكابرون •• الذين ساءهم الخير والنور •• فهبوا سراعا يضعون العراقيل فى طريق هذه الرسالة وقعـدوا لهـا كل مرصد •• بكل طريق •• ليوقفوا انتشار النـور ••

يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم « ويأبى الله الا أن يتم نوره ولـو كره الكافرون »(٣) •

---

(١) سورة المـائدة جزء الاية رقم (٣) •
(٢) سورة آل عمران : (٨٥) •
(٣) سورة التـوبة : (٣٢) •

٥ ــ وكان لابد من سلاح لمهاجمتهم .. وكشف زيفهم .. ودحض باطلهم .. والرد عليهم بما يناسب مواقفهم ..

٦ ــ وأمضى سلاح هو : الجدل .. ليحق الحق .. ويبطل الباطل ..

٧ ــ وقد كان الجدل بالتى هى أحسن أسلوبا من الأساليب التى انتهجها القرآن الكريم فى دعوة المعاندين .. والجاحدين الذين وقفوا للدعاة الى الله خاصة ــ الأنبياء والرسل ــ عليهم السلام .. الذين اصطفاهم الله لهداية البشر .

ولكن بعض النماذج البشرية أبت الا الجدال .. والعناد .. وكانت الحقيقة كما أخبر القرآن الكريم :

« **كلما جاء أمة رسولها كذبوه .. فاتبعنا بعضهم بعضا** » .
سورة المؤمنون (٤٤)

٨ ــ والاسلام غايته شريفة .. فلابد من وسيلة شريفة وليس هناك أشرف من القرآن الكريم فهو كتاب الله .. وهو معجزة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الكبرى .. قد اشتمل على مناهج فى الاستدلال .. والجدل .. والتأثير ، تكشف عن أدق نواميس النفس الانسانية ، وتبين شيئا كثيرا من أحوال الجماعات .. النفسية .. والفئرية .. وفيه الطب لأدوائها ، والعلاج الناجع لأمراضها ، والدواء الشافى لعللها .. وفى مناهجه البيانية المثل الأعلى للكلام المؤثر والحجج الدامغة ، واعتبر ذلك بأثره فى مخالفيه من المشركين وغيرهم ، وأثره فى المسلمين الأولين .

ولقد بلغ من أثره فى المشركين أن كل من كان يسمعه يناله من ثوره قبس : سمع الوليد بن المغيرة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقرأ القرآن الكريم .. فقال مخاطبا قريشا .. فوالله ما منكم رجل

أعرف بالأشعار منى ، ولا أعلم برجزه ، ولا بقصيده منى ، والله ما يشبه الذى يقول شيئا من هـذا ، والله ان لقوله الذى يقوله لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وانه لمثمر أعلاه ، مغـدق أسفله ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه ، وانه ليحطم ما تحته .

وكان كل من داناه منهم مس نوره قلبه ، ونال وجـدانه أثره ، حتى لقـد تناهى زعماؤهم عن سماعه ، وتعاهـدوا على ذلك ، لمـا رأوه من نيل كل من سمعه للايمان .

وأثره فى المؤمنين الأولين .. جعلوه معلمهم الأول ، ومرجعهم اذا اختلفوا ، ومنهل العقائد ينهلون منه ما يقوى ايمانهم ، ويثبت يقينهم ، ولم يعرفوا حجة سواه ، ولا محجة غير طريقة وهـديه ، به يجادلون ، وعن هـدية يصدرون »(١) وذلك اجمال يحتاج الى تفصيل على النحو الآتى :

لقـد أخبر القرآن الكريم أن الانسان جـدلى بطبعه وهـذه حقيقة سجلها خالق الانسان فى كتابه العزيز .. قال :

« **خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين** » .

سورة النحل (٤)

« **وكان الإنسان أكثر شىء جـدلا** » .

سورة الكهف (٥٤)

نستخلص من هـذه الآيات الأمور الآتية :

١ ــ أن للانسان رغبات يريد التعبير عنها .

٢ ــ وهو فى تعبيره يلجأ أحيانا وفى غيبة الايمان الى الاعتزاز برأيه .

---

(١) تاريخ الجدل ــ الامام محمد أبو زهرة ص ٦٤ ــ ٧٥ بتصرف .

٣ ــ الى حــد يحمله على التجنى على الآخرين .. والحــدة فى ابداء وجهات النظر .

٤ ــ وكان على ما وصفه ربه مختصابا لجــدل الذى مرد عليــه بحكم جبلتــه .

٥ ــ وكان المتوقع أن يكون فى موقف أفضل من هــذا .. وهو هــدف القرآن الكريم الذى جاء ليضع لــه ضوابط التعبير عن هــذه الرغبات على الطريقة القرآنية السليمة ..

وكان تميزه بالعقل معينا له على ممارسة معركة الرأى بنجاح .

الجــدل فى اللغــة :

ورد مصطلح المناظرة والمراء والجــدل فى الفكر الاسلامى .

فمــا هى المناظــرة ؟

وما هــو المراء .

وما هــو الجــدل ؟

وتفرض علينا الاجابة عن هــذه الأسئلة بيان النقاط التالية التى بها يتضح هــدفنا من ذلك البحث :

(أ) الجــدل عند العرب .

(ب) حقيقة المناظرة .. وثمراتها .

(جـ) المراء وموقعه من المناظرة والجــدل .

(د) التعريف بالجــدل ــ لغــة واصطلاحا .

(هـ) الجــدل فى القرآن الكريم .

نمــاذج تطبيقية

مستويات التعبير عن الرأى :

عرض القرآن الكريم للمستويات التى يلجأ اليها الانسان فى عرض فكرته ورأيه •• وهى تتم عبر نقاط ثلاث :

١ ــ المناظرة •

٢ ــ المراء •

٣ ــ الجدل •

المناظرة : للوقوف على معنى المناظرة لابد من معرفة أصل اشتقاقها لنخرج ببعض الملامح التى تتميز بها كى تؤدى دورها فى احقاق الحق •

● فهى أولا اما أن تكون مشتقة من المناظرة بمعنى « المماثلة » قال أفلاطون فى الجمهورية :

(الوسيلة الصحيحة الوحيدة لتوصيل المعرفة هى : وضع ذهنين فى اتصال أحدهما بالآخر) •

وحتى تكون لهذه المعرفة قيمة ينبغى أن يكون المتناظران فى مستوى عقلى واحد تقريبا •

● أو تكون المناظرة فى الاشتقاق بمعنى « المقابلة » أى أن يكون المتناظران متقابلين : فيأخذ المتناظران سمتا واحدا • فلا يميز احدهما عن الآخر بأن يجلس •• بينما يظل الآخر واقفا مثلا •

ولذلك حرص القضاة فى الاسلام على أن يأخذ المتخاصمان وضعا واحدا بلا تمييز ، لأن من شأن ترجيح أحد الخصمين فى ساحة القضاء التأثير على الطرف المرجوح ، وفى ذلك اضعافا لروحه المعنوية ، وبالتالى لا يقدر على الافصاح عن وجهة نظره تماما ، وربما ضاع الحق حينئذ •

وقـد رد على رضى الله عنه القاضي لأنه كناه فقال :

يا أبا الحسن دون خصمه .. فقال لـه : أنت لا تقضى بيننا . لأنك كنيتنى . ولم تكنه .

وقـد أشار الى هـذا عمر رضى الله عنه فى رسالة بعث بها الى أبى موسى الأشعرى :

(ساو بين الناس فى : مجلسك ، ووجهك ، وعـدلك ، حتى لا ييأس الضعيف من عـدلك . ولا يطمع الشريف فى حيفك) .

● وقـد تكون من النظر : بمعنى التبصر والتفهم لوجهة نظر الخصم :

فى دائرة المعـارف :

وربما كانت المناظرة مأخوذة من : التبصر والتفهم . على معنى أن يحاول كلا المتناظرين فهم قول صاحبه ، ووزنه ، وحسن تقديره ، ليحسن تصوره ثم ليصدق بعـد ذلك الحكم عليه ، لأن التسرع ، والنظرة المتعجلة المبتسرة لا تمكن من الاستيعاب .

وهـذا المسلك المتأنى يحقق فائدتين :

(أ) فائدة للمتبصر الذى يحيط خبرا بزوايا القضية فينأى بنفسه عن التورط فى خطـأ يمكن خصمه منه .

(ب) ثم هـو يخـدم الحقيقة ذاتها بما يجلى من جوانبها . لأن التسرع قـد لا يمكن من رؤية زوايا تتضح منها جـوانب الحقيقـة .

● وربما رجعت المناظرة الى معنى « الانتظار » وما يترتب عليه من ضرورة التريث والانتظار حتى ينتهى الخصم من طرح وجهـة نظره كاملة .

وهـذا أدب ينشىء بين الطرفين احتراما متبادلا تصير به المناظرة لونا من ألوان التعاون على البر والتقوى ، لا مبارزة كلامية وكفى .

واذا كانت المناظرة « مفـاعلة » فذلك يعنى ألا ينفرد واحـدا بالحـديث .

ومن هنا ندرك أن للمناظرة ملامح عامة من خلال هـذا العرض السريع :

١ ــ أنها معركة تدار لحساب الحق ، لا لحساب شخصي .

٢ ــ (يتردد) الكلام فيها بين شخصين ، متقاربين لا يمسك احدهما بزمام الحـديث وحـده بل لابد من ترددد بينهما .. ثم إن الذى يتردد كلام .. والكلام هو اللفظ المفيد .. لا اللفظ الجارح ؟؟

٣ ــ لابد أن تضع تلك الحرب أوزارها فى وقت ما عند ظهـور الحق ، لأنها لا تكون سجالا الا اذا كانت بين مبطلين يدافع فيها الواحد عن نفسه لا عن رأيه .

٤ ــ بمجرد ظهور الحق يسعد الطرفين معا ، فما يهم كلا منهما بالدرجة الأولى : ظهور الحق على يد أى واحـد ، وليس هو اظهاره على يده وحـده .. لأن ذلك رغم أنه يفيد الحق الا أنه على أى حال لون من التعصب ؟

بذلك تكون المناظرة هى « الجـدل » فى جانبه المحمود .. بخلاف المراء فانه « الجـدل » فى جانبه المذموم على ما سيتضح فى تناولنا لـه بعـد .

وفى هـذا الاطار جاء تعريف الجرجاني :

وقـد عرفها الجرجانى فى اللغة من النظـير ، أو من النظر بالبصـيرة .

وفى الاصطلاح : هى النظر بالبصيرة من الجانبين فى النسبة بين الشيئين اظهارا للصواب(١) .

المراء : كما جاء فى الاحياء :

(هــو طعن فى كلام الغير ، باظهار خلل فيه ، من غير أن يرتبط به غرض ، سوى تحقير الغير ، واظهار مزية الكياسة)(٢) .

وقــد جاء فى المصباح المغير : (مار الشىء ، مورا من باب قال : تحرك بسرعة .

وناقــة موارة اليــد : سريعة :

ومار : تردد فى عرض ــ ومار البحر : اضطرب ــ ومار الدم : سال) .

وجاء فى لسان العرب : (ومارت الناقــة فى سيرها مورا : ماجت وترددت) .

وسهم مائر : خفيف نافــذ .. داخل فى الأجسام .

قال أبو عامر القــلابى :

لقــد علم الذئب الذى كان عاديا على الناس أنى مائر السهم نازع

وفى ضوء هــذه المعانى يمكن أن نلاحظ مكونات المراء : حــدة .. وسرعة .. وتردد .. واضــطرا ب.. وخفــة .. وسيولة .. ومخاصمة .

ولا يمكن الوصول الى الحــق فى خضم هــذه الأهواء المتشابكة ، وفى غاية من الحــدة ، والخفة ، والتردد ، والاضطراب .

---

(١) التعريفــات للجرجانى تحقيق ابراهيم الأبيارى ص ٢٩٨ ط ١ سنة ١٩٨٥ دار الكتاب العربى .

(٢) الترغيب والترهيب ج ١ ص ٨٠ .

وما ظنك باثنين يريد كل منهما قتل صاحبه لينفرد هو بالساحة ؟؟

انها معركة تنتهى حتما بهزيمة الفريقين ؟؟

ومن أجل ذلك كان المراء شرا كله .. حيث أشارت السنه المطهرة الى ذلك .. عن أبى الدرداء : قال : (خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ونحن نتمارى فى شىء من أمر الدين ، فغضب غضبا شديدا لم يغضب مثله . ثم انتهرنا فقال : مهلا يا أمة محمد : انما هلك من كان قبلكم بهذا .

ذروا المراء لقلة خيره . ذروا المراء فان المؤمن لا يمارى . ذروا المراء فان المارى تمت خسارته ، ذروا المراء . فكفى بك اثما ألا تزال مماريا . ذروا المراء فان المارى لا أشفع له يوم القيامة . ذروا المراء . فأنا زعيم بثلاثة أبيات فى الجنة : رياضها .. ووسطها .. وأعلاها ، لمن ترك المراء وهو صادق . ذروا المراء فان أول ما نهانى عنه ربى بعد عبادة الأوثان : المراء(١) .

والخلاصة أن المراء سبب رئيسى . فى هلاك الأمم وذهاب ريحها

الجدل :

أولا فى اللغة :

جاء فى القاموس المحيط .. الجدل والجدل : الذكر الشديد ، وقصب اليدين والرجلين ، وكل عضو وكل عظم لا يكسر .. ومنه جدله وجدله فانجدل وتجدل صرعه على الجدالة وجدل جدولا كمدل عدولا :

والجدل محركة اللدد فى الخصومة والقدرة عليها ، وقد

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير . وانظر منبر الاسلام عدد ١٢ سنة ٤٨ ص ٧٠ مقال : من أجل حوار لا يفسد للود قضية/د. محمود عمارة .

جادله مجادلة وجـدالا ، ورجل جـدل ومجـدل ومجـدال : شديد الجـدل .

ورجل جـدل : اذا كان أقوى فى الخصام . وجادله أى خاصمه مجادلة وجـدالا .

والاسم الجـدل ، وهو شدة الخصومة ، ومقابلة الحجة بالحجة . والمجادلة : المناظرة والمخاصمة .. وقـد جاء ذلك فى القرآن الكريم قال تعالى

« لقـد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها .. »(١) .

والسورة تسمى المجادلة .

وقال تعالى :

« ولا جـدال فى الحج »(٢) .

كما جاء فى لسان العرب مادة جـدل : الجـدل : شدة القتل ، وجـدلت الحبل أجـدله جـدلا اذا شددت فتله وفتلته فتلا محكما ومنه قيل لزمام الناقـة الجـديل . والجـديل الزمام المفتول من أدم .

من هـذا يتبين أن الجـدل مأخوذ من الفتل والاحكام .. فكأن كلا المتجادلين يفتل صاحبه عن قوله الى قوله ، وقيل أصله من الجـدل وهو القـوة : فكأن كلا المتجادلين يقوى قوله ويضعف قول صاحبه ، وقيل أصله من الجـدالة وهى الأرض : فكأن كلا منهما يريد أن يصرع صاحبه ويجعله تمنزلة من يلقيه بالجـدالة »(٣) .

---

(١) سورة المجادلة : ١ .

(٢) سورة البقرة : ١٩٧ .

(٣) لسان العرب لابن منظور : ج ١ مادة جـدل ، والقـاموس المحيط مجد الدين الفيروز ابادى مادة جـدل ج ٣ ص ٣٤٦ .

الجـــدل في الاصطلاح :

هـــو الخصومة والمنازعة في البيان والكلام لالزام الخصم وابطال مدعاه واثبات دعوى المتكلم .

وهـــو على ضربين :

(أ) الضرب الأول :

بمعنى العناد في الخصومة لا لطلب الحق .. ومن ذلك ما وقـــع من الأمم لرسلهم .. وهو بهـــذا المعنى مذموم لأنه من أقبح الرذائل البشرية .وقـــد ذم الله هـــذا النوع في أكثر من موضع من كتابه العزيز قال تعالى

« ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا .. »(١) .

وقال سبحانه :

« ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هـــدى ولا كتاب منير »(٢) .

وقال تبـــارك وتعالى :

« الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا .. »(٣) .

وقال جـــل شأنه :

« إن الذين يجادلـــون في آيات الله بغير ســـلطان أتاهم إن في صـــدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه .. »(٤) .

وقـــد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم الى ذلك بقوله : « ما

---

(١) سورة غـــافر : (٤) .
(٢) سورة الحج : (٨) .
(٣) سورة غافـــر : (٣٥) .
(٤) سورة غافـــر : (٥٦) .

أوتى الجـدل قوم الا ضلوا » أى الجـدل على الباطل وطلب المغالبة به على الحـق .

(ب) الضرب الثانى :

يطلق الجـدل ويراد به المناقشة لاظهار الحق ، وهـذا المعنى من أسمى الفضائل الانسانية .. وقـد مدح الله سبحانه هـذا النـوع وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم به فى قوله سبحانه : « **وجـادلهم بالتى هى احسن** »(١) . وأمر أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجادلوا أهـل الكتاب — من اليهود والنصارى — بالتى هى أحسن فى قوله عز وجل : « **ولا تجـادلوا أهـل الكتـاب الا بالتى هى أحسن** » (٢) .

فالجـدل اذن أسلوب من أساليب الدعوة الاسلامية التى نهجهـا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوجيه من رب العزة وأمر منه فيمـا أنزل عليه من الكتاب والحكمة .. بل هـو كذلك منهج الأنبياء والرسل جميعا عليهم سلام الله .. فما من نبى ولا رسول الا جادله قومه عنادا ومخاصمة ظهورا وغلبة على الحق . ولكن الأنبياء والرسل كانوا يجادلون أقوامهم ويردون عليهم بالتى هى أحسن لاظهار الحـق واتبـاعه ..

قال الله تعالى عن قوم نوح عليه السلام :

« **يا نوح قـد جادلتنا فاكثرت جـدالنا فأتنا بمـا تعـدنا إن كنت من الصـادقين** »(٣) .

وكذلك قول هود عليه السلام لقومه مثبتا جـدلهم الباطل فى قول الله سبحانه :

---

(١) سورة النحل : (١٢٥) .
(٢) سورة العنكبوت : (٤٦) .

« .. أتجادلوننى فى أسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما نزل الله بها سلطان »(١) .

ومن هنا ولأجل ذلك اتصفت مجادلة الأنبياء والرسل عليهم السلام .. ومجادله المسلمين بالحسنى : ابعادا لها عن مفهوم المجادله الاصطلاحية الذى يعرف بالمجادلة « المذمومة » بانها ليست لاظهار الحق والصواب بل لطلا بالباطل وغلبة الحق . ذلك أن الدعاة الى الله دائما يقصدون الى اظهار الحق والصواب والوقوف عليهما واقناع الخصم بالحسنى »(٢) .

يقول صاب الظلال :

(ولأن دعوة الحق التى حملها نوح — عليه السلام — والرسل من بعده حتى وصلت الى خاتم النبيين محمد — صلى الله عليه وسلم — لهى دعوة واحدة .. من عند اله واحد .. ذات هدف واحد هو رد البشرية الضالة الى ربها .. وهدايتها الى طريقه .. وتربيتها بمنهاجه .. وان المؤمنين بكل رسالة لاخوة للمؤمنين بسائر الرسالات : كلهم أمة واحدة .. تعبد الها واحدا .

وان البشرية فى جميع أجيالها لصنفان اثنان : صنف المؤمنين وهم حزب الله .. وصنف المشاقين لله وهم حزب الشيطان ، بغض النظر عن تطاول الزمان .. وتباعد المكان . وكل جيل من أجيال المؤمنين هو حلقة فى تلك السلسلة الطويلة الممتدة على مدار القرون)(٣) .

ونرى أن هذه حقيقة قررتها الآية الكريمة من القرآن الكريم فى بيان أسلوب من أساليب الدعوة .. وهى ترفع العلاقات بين البشر عن أن تكون مجرد علاقة دم — أو نسب — أو جنس — أو وطن — أو

---

(١) سورة الأعراف : (٧١) .
(٢) الدعوة الاسلامية لتحقيق السعادة جـ ٢ ص ٢٥٠ ، تعليق على الرسالة الموضوعة فى آداب البحث : أحمد مكى ص (٥ — ٨) .
(٣) فى ظلال القرآن جـ ٥ ص ٢٧٤٥ .